

جمالية توظيف المكان في أدب الرحلة

"في مدينة الضباب ومدن أخرى" لعبد الله ركيبي أنموذجا

د/ ناصر بركة

جامعة المسيلة

الملخص

تطمح هذه الدراسة إلى البحث عن جمالية المكان في رحلة عبد الله ركيبي إلى مدينة الضباب ومدن أخرى، وما فيها من صور حسية ودلالات نفسية مرتبطة بجمالية توظيف المكان والقدرة على صوغه بطريقة فنية خالصة تستثمر فيها عوامل نفسية وأخرى إبداعية. هكذا يتأسس تشكيل المكان في النص الرحلي على مرحلة نقله من صورته المادية المدركة إلى صورته اللغوية المقروءة، ضمن نسق نصي متناسق له خصوصياته التي تجعله أكثر فاعلية وانفتاحا على المعنى وتعدد القراءات. إن نقل تفاصيل المكان المادية يكشف ارتباط النص الرحلي بمضامين متعددة ثقافية وتاريخية واجتماعية وحضارية، تتعدى بفاعليتها النصية حدودها المادية لارتباطها بتوظيفها بحديث الذكريات ونزوعها نحو إشراك القارئ في تأنيث النص الرحلي وإثراء دلالاته. الكلمات المفتاحية: جمالية المكان، أدب الرحلة، الفضاء النصي، المكان واقعيًا وورقيًا، هندسة المكان، جدل الواقعي والمنتخيل، كتابة المكان، اللغة والمكان، جمالية التصوير.

Résumé

Cette étude vise à trouver l'esthétique du lieu dans le voyage de Abdullah Rkibi à la ville brouillard (london) et d'autres villes, et ses images merveilleuses avec sa densité psychologiques associés à l'emploi esthétique du lieu et de la capacité de recréer avec une manière artistique qu'ils investissent des facteurs psychologiques et autres créatifs.

ainsi, la formation de l'endroit est basé dans le texte du voyage sur les progrès en cours de transfert à partir de l'image physique, dans un format de texte cohérent a ses propres particularités qui le rendent plus efficace et ouverte à la signification et la multiplicité des lectures.

Le transfert des détails de l'endroit physique révèle le lien de texte du voyage avec d'autres contenus multiples culturels et historiques, sociale. ce genre du texte dépasse ses frontières physiques à la parole de souvenirs principale, et l'association de lecteur.

توطئة:

إن الاحتفاء بالمكان يحمل في طياته هاجس السؤال عن الانتماء والمنشأ والذكريات، ليظل المبدع قادراً على بناء علاقات إنسانية متعددة يتضمنها المكان، فالتجربة الإبداعية بما لها من أبعاد ذاتية ستظل انعكاساً لمنظومة متكاملة من المؤثرات ومنها المكان الذي يعدّ مكوناً من مكوناتها ومجالاً مشتركاً تتفاعل فيه الأحداث والمواقف. والممارسة النصية حينما تتخذ من الإبداع وسيلة من وسائل التعبير بالصورة عن المكان لا يعني ضرورة أن تكون تلك العملية على تعقيدها مجرد نقل آلي/ إسقاطي لجزئيات المكان، إذ لا مناص من التنويه ههنا بخصوصية الكتابة في بعدها الفني، وما تتطلبه من موهبة وقدرة على "تكوين صور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدرجات حسية بزمان أو مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك، فتعيد تشكيل المدرجات وتبني منها عالماً متميزاً"¹.

لذا يعدّ تفاعل الأمكنة في مستواها التخيلي مكوناً أساسياً من مكونات الممارسة النصية برؤاها الفنية ومعطياتها الجمالية وما لها من امتدادات دلالية، إذ يقتضي استكناه هذا التفاعل في سياق توظيفه النصي مراعاة التداخل بين بعديه الواقعي والتخيلي في دلالة على حركيته، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بنوع خاص من الكتابة ممثلة في أدب الرحلة التي تعدّ في تعريف من تعاريفها ضرباً من السيرة الذاتية "في مواجهة ظروف وأوضاع، في اكتشاف معالم وأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها حكماً ومواطنين فهو في النهاية كل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته"².

فالاستكشاف حينما يتعلق بتوصيف المعالم والأقطار والحكم عليها يستحيل وفقاً لهذا الرأي انطباعاً يتكون عبر مسار الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، وقد يجد صاحبها نفسه أمام واقع يختلف عمّا ألفه وعاشه في محيطه الذي ينتمي إليه فيسعى للتعبير عن ذلك كتابة، محاولة منه نقل ما عاينه بطريقة فنية يخالها كافية للإحاطة بما صادفه أو شاهده في رحلته، وهو ما يعد خصيصة تسمّ شكل هذا النوع من الكتابة ومضمونها.

والرحلة من وجهة نظر أخرى "خطاب وصفي لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين"³ إذ يستشف من هذا التعريف البعد التداولي للخطاب الرحلي؛ الذي يفترض نمطاً من أنماط التلقي الخاص نظراً لطبيعته الأسلوبية وخصائصه الفنية من جهة، ونظراً لخصوصية الوصف في هذا النوع من الخطابات وما فيها من انصهار بين مكونيه الأساسيين المكاني والزمني من جهة أخرى.

وإذا كانت جغرافية الأمكنة، في هذا النوع من الكتابة، ذات مرجعية واقعية فإن لها طبيعة مختلفة في سياق انتمائها النصي، فالصلة بين الكتابة والمكان تقتضي النظر إليهما بوصفهما مكوناً فنياً له هويته وطبيعته منذ كان فكرة إلى أن صار كتابة، والتي تتيح إمكانية البحث عمّا ستضيفه اللغة بما تملكه من طاقة تعبيرية إلى المكان وما يحمله من دلالات على أهميته وخصوصيته الفنية وما يثيره من قراءات؛ لأنه لا يعتمد وظيفياً "على اللغة وحدها وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع، ويظل رغم ذلك واقعاً محتملاً"⁴.

هكذا يتأسس التساؤل عن دلالات حضور المكان في منظومة الكتابة الإبداعية على قابلية تفاعل عناصره المكونة بأبعادها وقيمها، لذلك يبدو المكان في رحلة عبد الله ركيبي* مكونا فنيا وعالميا مليئا بالتجارب الذاتية يفرض مراعاة خصوصياته المحددة لهويته والتي تستدعي بدورها التنويه بما يمثله هذا التعالق من دلالات متعددة وجودية ونفسية ودينية وفلسفية وتاريخية، ليكون المكان من منظور وظيفي اختصارا لمواقف إنسانية لها صلة بمحدود الرؤيا وزوايا التفكير.

تمظهرات المكان في رحلة عبد الله ركيبي

من المفيد في هذا المقام التنويه بما يحمله المكان من تمظهرات تمثلها عناصر الطبيعة والمدن والأوطان؛ بما هي ظواهر لها بعدها الوجودي والفني منذ اللحظة التي تفاعلت فيها مكونات العملية الإبداعية بأبعادها الجمالية، لذا فإن هويتها في رحلة عبد الله ركيبي تقوم على دلالات تتعدى بفاعليتها مادية المكان لتنصبّ على طبيعة بنياته وعلاقاته وعناصره النصية التي أسهمت في إعادة تشكيله لغويا، مكسبة إياه قدرة على التكثيف والإيجاء والترميز، وبخاصة حينما يتعلق الأمر برمزية الانتماء والارتباط بالأرض، يقول ركيبي وقد تذكر العاصمة الجزائر في رحلته: "كنت دائما أفكر في جمالها الذي انفعّل به كل من زارها على مرّ العصور وعبر عن إحساسه بهذا الجمال، وانبهاره بطبيعتها الساحرة وموقعها الجغرافي المتميز، وأحيانا أتساءل لماذا لم يكتب عنها الشعراء كثيرا؟ صحيح أن بعضهم قد وصف زرقة البحر وجمال الساحل ولكننا لا نعثر على الصور التي تهم وجداننا وتسحر ألبابنا"⁵.

فاقتراح التفكير بجمال المكان في اعتقاد ركيبي باعث على تأمل ما فيه من طبيعة آسرة تحيلك على جمال وطن وارتباط بأرضه، ليتحول بذلك المكان إلى فضاء "يعيش فيه الإنسان ليس بشكل موضوعي فقط ولكن بشكل رمزي، من خلال ما يحلم به الإنسان أو يتذكره؛ أي من خلال ما ينسجه الإنسان من علاقات بالمكان، سواء أكانت علاقات ألفة أم حنين أم انجذاب أم تذكر أم علاقات عداء ونفور وابتعاد ونسيان"⁶.

إنّ الإحساس بأهمية المكان يتأتى من قيمته وجمال جاذبيته الملهم، الذي حمله على تأمل أسرارهِ على الرغم مما يكتنف حسية الصور المنقولة من مادية طبعت تفاصيل المكان وجزئياته في سياق التواصل بين الرؤية العينية لما هو مدرك وبين استثمار ذلك كتابةً بتمظهره اللفظي وحضوره اللغوي، يقول ركيبي وقد استهواه في رحلته امتزاج الأزمنة والأمكنة: "فحين ألحها من بعيد وأشاهد المنظر الذي يتشكل مثل الهلال من مبانيها وسواحلها ومرتفعاتها وتلك الجبال التي تحيط بها عندئذ أستغرق في إحساس عجيب لا نظير له يمتزج فيه الواقع بالخيال والماضي بالحاضر"⁷.

ولما كان ذكر الأمكنة في شكل من أشكاله تأثر بالواقع وتقلباته، فإنه يمتلك بحضوره النصي بعدا تأمليا يتيح إمكانية تحديد هويته وتحسس المعاني، التي يتضمنها بوساطة تحويل مكوناته المادية إلى لغة واصفة فالمكان في سياق توظيفه النصي جزء من منظومة نصية تتيح إمكانية قراءته بوصفها تعبيرا عن الهوية والانتماء، والنظر إليه ضمن سياقاته النصية إنما هو "ملامسة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالجمال المعيشي ارتباط وجود وانتماء وهوية، فالمسألة المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب إنما تتعداها إلى مجالات أوسع تضطلع بها الدراسات الإنسانية في مختلف اهتماماتها وحقوقها"⁸.

والملاحظ أن وضع تصور لمفهوم المكان في أدب الرحلة يتأسس على إدراك جزئياته وما يحيط بها من أبعاد متعددة، تتفاوت فيها درجات تأثير الأمكنة تبعاً لأهميتها وتوقعها في بيئتها التي تنتمي إليها، وهو ما يعني أن المكان الواحد قد يثير في النفس أكثر من دلالة تبعاً للحالة الشعورية المصاحبة لعملية إبداع المكان فنياً، وإعادة صوغ عناصره بطريقة تختلف من مبدع إلى آخر.

هكذا يسعى المبدع في ارتحالته المكاني إلى التعبير فنياً بفعالية متميزة وآليات خاصة يتفرد بها تشكيلاً وبناءً، وفي نزوعه هذا إحساس بوقع المكان وأثره في نفسيته من جهة وقدرة على توصيفه والإلمام بتفصيلاته من جهة أخرى، حينها يستحيل عنصراً من العناصر التي يوجه إليها الإنسان مشاعره سواء أكانت مشاعر ألفة أم مشاعر معادية تخضع للوضع الذهني والنفسي الذي يعاينه الإنسان، فالموقف من المكان إذاً متأثر من قيمته ومما يثيره من أحاسيس ومشاعر⁹.

وقد يأخذ الإحساس به بُعداً تأثرياً يتمثل فيما تثيره عناصر الطبيعة من أثر في توجيه النظرة اتجاه تفاعلها مع مظاهر المدنية المادية وهو ما يظهر في توصيف عبد الله ركيبي ونقل الصورة كما هي عليه في واقعها المحسوس معاًيناً معالمها، وتفاعل الأفراد فيها كقوله مثلاً: "أجد الضباب يغطي الطرقات والمباني حتى لا أكاد أتبين من أمامي، فالسيارات تشعل أضواءها حتى يعرف السائقون بعضهم بعضاً وكى لا تقع الحوادث، ثم إنَّ حركة السير بطيئة السيارات مثل المشاة الكل يتمهل لأن الجليد يغطي الشوارع كل يوم تقريباً والبرد يتزل على الرأس مثل الصخر"¹⁰.

إنَّ هذا التلاحم بين التقلبات المناخية ممثلة في الضباب والجليد والبرد ومكونات المكان الأخرى من طرقات ومباني وسيارات يضيف على الصورة المنقولة تجانساً وتآلفاً، هو انعكاس لما ينتاب المرء من أحاسيس، حينما يقلب بصره على مظاهر الطبيعة فيبدي إعجابه بما فيها من مناظر خلابة ومؤثرة؛ كحال ركيبي وقد وقف مشدوهاً أمام منظر الشمس "حيث كانت أشعتها الذهبية تنساب على رؤوس الأشجار في حنو ورفق، وتتخلل الأغصان فتحدث مشهداً شاعرياً بديعاً، وما يزيد من الجمال الطبيعي تلك المباني المتناثرة هنا وهناك مما يدفع النفس إلى الاندماج في هذه الطبيعة الساحرة"¹¹.

ولما كانت الطبيعة جزءاً من رحلة الحلّ والانتقال، فإنَّ الاهتمام بها يضاف على النص الرحلي ديناميّة خاصة؛ بما لها من وقع خاص يتجلى أثره فيما تتضمنه فقرات النص الرحلي من دلالات وإيحاءات كما هو الحال عند عبد الله ركيبي حين قال: "أخذت المناظر الطبيعية تتوالى أمام ناظري، الخضرة في كل مكان البيوت كلها مغطاة بالآجر المزارع متشابهة فيد الطبيعة، مثل يد الإنسان قد رتبها ونسقت أشجارها وعملت الآلة الحديثة على رسم خطوط مستقيمة أثناء الحرث، فالإنسان يوجهها وهي تقوم بكل العمل وهذا أثر من آثار الحضارة الغربية إذ انتهى دور المحراث إلى الأبد"¹².

وعلى الرغم من هذا التعلق بالمكان المرتبط بحب الاكتشاف والشغف به إلا أنه يقترن أحياناً بالهم والحزن: و"الإحساس بالوحدة في هذه المدينة الكبيرة، فالغربة مؤلمة لا يحس بها إلا من عانى منها مثلي فلا يجد سوى الصمت والفراغ فيحاورهما، ولا يسليه سوى القراءة أو التأمل في الحياة والغد والأمل في العودة إلى أرض الوطن

الحبيب"¹³، فالمدينة بما لها من حمولة فارقة تظهر في امتدادها الطوبوغرافي واتساع مداها الهندسي أضحت مقرونة بمعاني الغربة المؤلمة والفراغ الرهيب، فهي الثنائيات التي يقابلها البحث عن البديل النفسي تعويضا عن حالته بعيدا عن أهله وخلانه، وعليه تتحدد حرية الفرد ومشاعره بنوعية المكان الذي يعيش فيه، "فالإنسان يعيش في بيته ويتحرك بحرية أكبر، لكن ما إن يخرج من بيته حتى تتسع مساحات المكان ويبدأ في الخضوع لسلطته، ذلك أن هذه المساحات دوائر متراكزة تتسع من حين يمارس فيه الفرد حياته اليومية إلى حيز جماعي تنظمه الجماعة لتحافظ على تماسكها وتناغمها"¹⁴.

ومن أشكال التأثير بالأمكنة في رحلة عبد الله ركيبي استحضار بعضها ومقارنتها بما كانت عليه في زمن مضى، مع التأكيد على الفارق في إحداث الأثر الجمالي والنفسي لاختلاف في مستوى النضج والإدراك المصاحب لمراحل التطور العمري؛ فيقول: "وكم هي صعبة المقارنة وسهلة في آن واحد لكن يبقى الحنين جارفا إلى الأماكن التي يقضي فيها المرء أيام الصبا والشباب حيث العنفوان والإقبال على الحياة أما أيام النضج والسن المتقدم فإن الحنين يفتر دون شك"¹⁵.

لذا يعدّ الارتباط بالمكان، بوصفه باعثا على الانفعال والتأثر، محطة وسطى بين مرحلتين الشباب والهرم، يتغير معهما الإحساس به مثلما يتغير المرء بفعل عامل الزمن وتعاقب أيامه ولحظاته وما يصاحبها من تحولات تمسّ مجال الرؤية الذاتية للمدركات المادية، التي يعدّ المكان عنصرا من عناصرها إذ لا يخفى على قارئ أدب الرحلة أن التعامل مع الواقع مثلما هو في تجلياته المدركة يعتمد بالأساس على مدى تأثيره وجماليته؛ ومن ثمة يأتي المكان الذي يتعلق به المرء، بفعل تأثيره وجاذبيته، متأبيا على الحدودية والانغلاق، فيبدو كأنه متجه إلى أماكن مختلفة دونما صعوبة، يتحرك في انسيابية نحو أزمنة أخرى يحكمها الحلم والذاكرة¹⁶.

ومن أشكاله هذا التأثير أيضا الإعجاب بالمكان لرمزيته الخاصة داخل محيطه الذي ينتمي إليه وخارجه، ومن ذلك حديثه عن العاصمة المصرية القاهرة بوصفها "مدينة ساحرة بأتم معنى الكلمة بموقعها المتميز بنبيلها الرائع، بأناسها البسطاء الطيبين، بثقافتها العربية الأصيلة، بذلك الزخم الروحي الذي يعطر أجواءها، بنهارها الصاخب وليلها الهادئ الذي يستمتع فيه الناس فلا ينامون إلا قليلا، بالمرائب والعوامات التي تتهدى على سطح النهر الخالد، عكس لندن التي يكاد يختفي سكانها تماما بعد السابعة مساء"¹⁷، ولا يعني هذا الخوض في توصيف المكان ونعته بنعوت كثيرة استغراقا في تتبع تفصيلاته، بل يتعداه إلى مقارنة نمطين من أنماط الحياة؛ نمط حياة يمثلها سكان لندن ونمط أخرى يمثلها سكان القاهرة الذين يتميزون عن غيرهم بسلوكاتهم وطرائق حياتهم.

ويأخذ الإعجاب بالمكان مأخذ التنويه بطبيعته الحسية ودلالاتها الفردية والجماعية كحديثه عن الأنهار والمطارات والمقاهي والمكتبات والطرق التي عاينها في رحلته؛ حيث تتميز بطابعها التشاركي في استغلالها والاستفادة منها، بعبارة أخرى يمكن القول بانفتاح الأمكنة الجلي على التعدد الثقافي والايديولوجي والاجتماعي ضمن هذه الفضاءات، بما يشبه حالة انصهار اللذوات فيها، يجد فيها الأفراد أنفسهم أمام استقطابات متعددة مؤثرين ومتأثرين، والحال أن هذا المعطى التوظيفي يستمد طاقته الإيحائية من أبعاده الرمزية المميزة له على الأقل ضمن

الأطر النصية التي ينتمي إليها، فإذا كانت تلك الأمكنة المذكورة آنفا قد صارت عند الكثيرين من الأفراد العاديين في حكم المؤلف، فإنها بالمقابل تتميز برمزية خاصة عندما تكون جزءاً لا يتجزأ من منظومة الكتابة الرحلية. ومن مظاهره كذلك ارتباط الأمكنة بحديث الأوطان والتعلق بها كقوله: "لقد حقق قلبي وأنا أركب الطائرة لأهبط في مطار الجزائر، وتذكرت المثل الإنجليزي المعروف (لا يوجد مكان مثل منزلك أو وطنك) وهذه حقيقة خالدة فلا شيء يعوضك عن وطنك؛ لأنك تحس فيه بكرامتك حتى ولو تعرضت فيه للإهانة مما عبر عنه شعراء عرب قديماً وحديثاً"¹⁸ حيث لا صوت يعلو على صوت الوطن/ الأم عندما يتسامى الشعور بالانتماء إليه، إحساساً من الذات بواجبها نحوه توقيراً لتاريخه وتقديساً لأرضه.

والحقيقة أن التعلق بالوطن لا يعدّ مقتصرًا على أنواع أدبية بعينها، لأن المسألة من حيث دلالاتها ومضامينها ترتبط أكثر في الكتابة الرحلية بنوع من الشعور بالهوية والمواطنة والتاريخ، وتلك معطيات لا تخفى في الأدب الرحلي؛ لأن تبني خصائصه الفنية شكلاً ومضموناً لا ينفي عنه صفة الارتباط بقضايا الوطن وهوموه.

وفي موضع نصي آخر نلفيه أكثر ارتباطاً بهذا الوطن مُقراً بعدم القدرة على نسيانه: "ومن يستطيع أن ينسى وطنه، إني مثل كثيرين غيري، يفكر في الخروج منه وبمجرد أن تطأ أقدامنا أوطاناً أخرى نبدأ في التفكير ثانية في العودة إليه"¹⁹، وقد يتعداه إلى الحديث عن أوطان أخرى كذكره دمشق مثلاً، حيث لا يقتصر الأمر على مجرد الذكر فحسب، بل يتعداه إلى التنويه بخصال أهلها وطبائعهم وهم الذين ألفوا المكان فأثر فيهم وتأثروا به: "وتبقى دمشق هي دائماً كما عرفتُها بشعبها المضيايف وبثقافتها العربية الأصيلة وبمواطنيها المهذبين الذين يرحبون بك أينما توجهت من المطار حتى المكان الذي تقصده، فالعربي لا يشعر إطلاقاً بالغرابة فيها؛ لأن العروبة عريقة عراقية العرب في هذه الديار"²⁰؛ فذكر المكان صار مقروناً بمعاني كثيرة منها الكرم والخلق الرفيع والشعور بالطمأنينة والإشادة بالأخلاق والشيم الرفيعة، ليزيده أهمية تنأى به عن حدوده المادية بأبعادها الهندسية الدقيقة.

حضور المكان وجمالية توظيفه

إنّ ما يخضع له المكان من تحولات خارجية تمس في جوهرها تركيبته المادية وامتداده التأثيري يحقق له حضوراً واقعياً بأبعاد فكرية وقيم معرفية مرتبطة بسياقات تاريخية واجتماعية وثقافية، بيد أن قراءته في سياق توظيفه النصي يتجاوز هذه المميزات؛ لما يحمله من دلالات تنفي عنه الصفة السكونية بانعكاسه على سطح الورقة وما يشغله من مساحة تمثل بصمة فعل الكتابة وجمالية التوظيف، لذا يعدّ تصور المكان بوصفه مكوناً فنياً من مكونات النص الرحلي تعبيراً عن رؤيا جمالية تكشف عن أبعاد تشكيله وعمق حضوره الإبداعي، الذي يتم تفعيله بتوظيف الوصف والتصوير وهذا يعتمد على قدرة الكاتب وبراعته في نقل ما يقع عليه بصره من أمكنة أثناء تنقلاته، حيث يقوم بتوظيفها على عملية انتقاء لبعضها دون البعض الآخر، حتى لا تتحول العملية إلى مجرد نقل آلي لمشاهد العالم المدرك.

وعليه فالتشكيل الجمالي للمكان يستدعي تحكماً في لغة الوصف وآليات التصوير، استعانة بما للكاتب من قدرة على التخيل واستحضار جزئياته من الذاكرة مثلما فعل ركبتي في رحلته؛ إذ وقف عند أكثر من محطة استحضارية بعدما قرن حديث الذكريات بما يتعرض له المرء من عوامل الزمن والنسيان قائلاً: "وفي تجوالنا كنت أسأل أم البنين

عن الأماكن التي مازالت تذكرها حتى الآن، فأجدها لا تذكر إلا القليل منها فالبعد عن المكان مثل البعد عن الإنسان ينسينا كثيرا من ذكرياتنا، خاصة إذا تقدم بنا العمر ولم نسجل ذكرياتنا على الورق؛ لأن الذاكرة تشيخ مثل صاحبها فتحفظ أشياء وتسقط أخرى وسط زحمة الحياة وكثرة الضغوط"²¹، لذلك تستمد عملية الاستحضار فاعليتها مما توارى من أحداث ومواقف صادفتها الذات المبدعة أثناء رحلتها من بدايتها إلى نهايتها. والعملية على صعوبتها تستلزم -أيضا- تعاملًا خاصًا مع ما توافر من يوميات ومذكرات سبق للكاتب أن دونه عن رحلته، مع الحرص على تسجيل ما يراه مُهما يستحق التنويه به كتابةً، وإلا فإن الذاكرة، وفقا لتوصيف ركيبي، تبقى عرضةً للعجز أمام ما يتعرض له المرء من ضغوط حياتية وتحولات عمرية قد تكون سببا من أسباب توارى ذكريات وظهور أخرى على السطح، ويمكن أن يكون بعد المسافة الزمنية بين لحظتي الاستحضار والكتابة سببا كذلك في إصابة الإنسان بحالات النسيان غير المقصودة.

وعليه، تعتمد الإحالة في رحلة عبد الله ركيبي على ما احتفظت به الذاكرة من مشاهد وصور والانتقال بها من عالمها المدرك إلى عالم الإبداع بجمالياته الخاصة التي يرتبط فيها "عنصر المكان بالوصف المادي التجريدي للمكونات السردية من جهة الحركة والثبات والغياب والحضور؛ لأن هاتين الشائيتين هما المحوران الرئيسان للمكان الفاعل من غيره"²².

وهو ما يدل على أهمية هذه المرحلية في إعادة صوغ المكان وإضفاء لمسة إبداعية عليه انطلاقا من الإحساس به والانبهار بمكوناته مثلما يتمظهر هذا المعطى في إقرار صاحب الرحلة نفسه بانجذابه نحو عاصمة الضباب (لندن): "وقد أحسست بأني منجذب إلى هذه المدينة وإلى طرفاتها الواسعة وبناءاتها المترامية الأطراف، وكلما توغلنا فيها أدركت مدى اتساعها وشدّ انتباهي عماراتها؛ فمبانيها متقاربة في علوها خاصة تلك الدور المستقلة(الفيلات) سطوحها يغطيها الآجر، الخضرة في كل مكان حتى في هذه الدور فهناك دائما حديقة أمام المنزل وأخرى خلفه بحكم القانون إنها المساواة حتى في العمارة مما يجعل الناظر إليها يحس بالتناسق والفن والجمال"²³.

هكذا يبدو المكان في هذه الرحلة متجاوزا لأبعاده الهندسية التي تؤطره؛ بما يتضمنه من حضور نصي يستمد جماليته من تعالقه بمرحلية التنقل المكاني الذي يفترض استعدادا خاصا وإعدادا منظما، بما يشبه سلطة يتحكم فيها المكان لجدته وجاذبيته، فبعد أن كان صدى لواقعه المادي يستحيل مع انعكاسه ورقيا صدى لأحاسيس الكاتب ومواقفه، ليتحول تشكيله في(مدينة الضباب)إلى فاعلية تخفي وراءها أسرارًا وذكريات وتنوع ثقافات، لتظل هذه الفعالية مادة أساسية متضمنة لدلالات متعددة قابلة للتحليل والمعالجة انطلاقا من توظيفها النصي، الذي يعتمد على استكناه حضورها اللغوي وطرائق تجسيدها وتمثلها بوصفها جزءا مؤثرا في منظومة النص الرحلي.

فما تسعى إليه قراءة المكان في رحلة عبد الله ركيبي إذاً هو الوقوف على أبعاده الجمالية ووظائفه النصية التي لها علاقة بموضوعات الغربة والحنين والارتباط بالأرض ومشاعر الألفة؛ إذ يمثل المكان مستودعا للذكريات، ويظل يوحى للإنسان بالفعل المبدع ويمدّه بالشحنات النفسية والوجدانية ويؤجج المشاعر"²⁴، وقد يكون بالمقابل نقلا لمشاهد اجتماعية مؤلمة تمثل الوجه الآخر للمدينة التي يختلف فيها المركز عن الهامش كقوله: "حين طلب إلي الزملاء أن أقترح المكان طلبت منهم أن يصطحبوني إلى الأماكن الشعبية فسرنا نحو ساحل البحر إلى أطراف

المدينة وهناك شاهدت البؤس بعينه والفقر المدقع في هذا الوجه المظلم من المدينة المتبرجة الغارقة ليلا في الأضواء نهارا في الخضرة والجمال والانغماس في اللذات إلى أبعد الحدود²⁵.

هي صورة المكان الخفي بما يحمله من شقاء قاطنيه وما يعانونه من عوز وحرمان، يمتد ليشمل تفصيلا لعناصر الصورة المكانية بما فيها من مكونات مادية اعتمادا على التوصيف باللغة ومفرداتها، يقول ركيبي نقلا لما عاينه وشاهده: "أثناء دخولنا للحي الفقير رأيت الأكواخ الخشبية متناثرة بل متلاصقة يسكنها بشر لا تستطيع إدراك ملامحهم بدقة لأن الأطفال والنساء وحتى الرجال كانوا يحدقون فينا من خلال كوات ضيقة أجسادهم متراسة بعضها فوق بعض نظراتهم زائغة وكأنهم يشاهدون أناسا جاءوا من كواكب آخر²⁶".

لذا، وبناء على ما سبق، تأتي جمالية توظيف الأمكنة مرتبطة بعناصر متفاعلة فيما بينها، وما تفرعها إلا لضرورة منهجية أملت طبيعة الدراسة ونوعيتها، وهذه العناصر تتمثل فيما يأتي:

-جمالية التوظيف اللغوي:

وهو عنصر له بصمته في هذه الرحلة انطلاقا من الحرص على توظيف لغة واصفة وأخرى شارحة، وكذا حضور ضمير المتكلم بوصفه ملمحا أسلوبيا ينم عن خصوصية التجربة في ارتحال الذات وأحادية مشاهداتها وملاحظاتها، وأخيرا استعمال الجمل الواصفة في نقل الأماكن والتعريف بها للقارئ وهو ما يمكن الوقوف عليه في قول ركيبي: "ركبت الحافلة للعودة إلى المنزل، الطريق طويل جدا ورغم انشغالي بما تمرّ عليه من مبان وحدائق منتشرة على الطريق إلا أن هاجس الخوف من الضياع كان مستبدا بنفسي²⁷".

حيث لا يمكن إغفال دور اللغة في التعبير عن كثير من المفارقات التي تطبع مرحلية الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، ففي المقطع التوضيحي السابق جمع بين الاهتمام بما يطبع معالم المكان من أبنية وحدائق متوزعة على حواف الطريق وبين التعبير عما سماه ركيبي (هاجس الخوف).

هو الهاجس الذي يغدو مع استمرار الرحلة مقترنا أكثر بموقفه من الآخر، تعبيرا عن ردة فعل حيال تصرفات غريبة حاول وضعها في سياق توصيفي قائم على لغة الكتابة وطرائق التعبير، يقول ركيبي بعد زيارته للعاصمة الفرنسية (باريس): "فقد لاحظت الأنظار تتجه إليّ، تتفرس ملاحي، وصدمت لهذا السلوك غير الحضاري الذي لاحظت أنه تكرر معي فيما بعد كثيرا في تلك العاصمة التي احتل أهلها بلدي في الشارع في الفندق في المقهى في المطعم²⁸".

واللافت في اللغة الموظفة أنها لغة تقريرية مباشرة؛ لاعتمادها على مصارحة القارئ بحيثيات الرحلة دونما انشغال بما للغة من قدرة إيجائية ورمزية تستفز القارئ وتستنفر طاقاته التأويلية، فتدعوه إلى إثراء دلالاتها الظاهرة والخفية، ومع ذلك تبقى التقريرية اختيارا أسلوبيا ولملحا فارقا من ملامح الكتابة الرحلية، يتم فيه تسجيل الأحداث والمواقف والحوارات بطريقة مباشرة مثلما تضمنه هذا المقطع التوضيحي: "وطوال المدة التي قضيناها هنا في ألمانيا لم يزعجنا سوى شيء واحد هو الطقس المتقلب، إلى درجة أنك لا تستطيع أن تتنبأ كيف سيكون بعد ساعة وربما أقل، وشيء آخر هو أصوات القطارات التي لا تهدأ، وكذا نواقيس الكنائس ولا سيما لمن يسكن قرب إحداها، وأصواتها رتيبة ثقيلة، وكأنها تعلن عن نفسها أو توحى بأن الدين موجود رغم أن الكثرة الغالبة من

الشعب لا تذهب إلى الكنيسة إلا في الأعياد ربما، وطبعا نحن نحترم الأديان السماوية ونحترم شعائرها ولو اختلفت معنا وهذا هو أحد الفروق الأساسية بيننا وبينهم²⁹.

-جمالية المكان في علاقتها باستراتيجية العنوان:

يعدّ العنوان الموظف (في مدينة الضباب ومدن أخرى) إثباتا لدوره في تأنيث النص الرحلي، لتأسسه على ملمح أسلوبى لافت يتمثل في عنصر الاختيار القائم على الاستهلال بشبه الجملة (في مدينة الضباب) والعطف عليها بعبارة (مدن أخرى) تكثيفا لمضامين متعددة ذات صلة بما للمكان من قدرة على التأثير، وإثارة فضول القارئ حينما يتفحص هذا المكان وقد استحال تركيبا لغويا باختيار الضباب للتدليل على أنه ليس مجرد ظاهرة طبيعية وقف عليها الكاتب واستوقفته، بل تختفي وراء هذه الظاهرة انفعالات وأمزجة وطرائق حياة "فخلف العنوان والأسطر الأولى والكلمات الأخيرة، وخلف بنيته الداخلية وشكله الذي يضفي عليه نوعا من الاستقلالية والتميز ثمة منظومة من الإحالات إلى كتب ونصوص وجمل أخرى"³⁰، وهي الإحالة البادية في توظيف (الضباب) بوصفه محدا من محددات العاصمة (لندن)، فتبدو "كأنها حسناء صامئة غامضة، لا تكشف لك عن سرها حتى ولو بقيت معها العمر كله"³¹ فالمكان بهذا الحضور النفسي ليس مفصولا عن تجربة الإنسان في الفضاء الذي يعيش فيه بشكل رمزي وموضوعي، محققا ما يتذكره وما يحلم به وما ينسجه من علاقات متشابكة.

-توظيف المكان وجمالية التشكيل:

إذ يختلف نقل الأمكنة في أدب الرحلة وإعادة تشكيلها بحسب نوعيتها وطبيعتها وتنوعها بين أماكن الإقامة المفتوحة وأماكن الإقامة المغلقة؛ غير أن تشكيل عناصر المكان ورقيا يعني فيما يعنيه خصوصية وتفردا في استيعاب تفاصيل واقع المكان المادي ثم إعادة تشكيله فنيا اعتمادا على الوصف الذي "يعكس واقعا فيه إدراك كلي وآني للعناصر المكونة لهذا الواقع، وكيفية انتظامها في الفضاء أو المكان الذي توجد فيه، وقد يكون الأمر متعلقا بموجودات جمادية أو بأشخاص أو بغيرها كما يتمثل الوصف في محاولة نقل هذا الواقع بجزئياته وتفاصيله، ومن الاستراتيجيات التي عادة ما تعتمد في بناء هذا النوع من النصوص الانطلاق في الوصف من أقرب نقطة إلى أبعد نقطة، من الأسفل إلى الأعلى أو العكس ومن اليمين إلى اليسار"³².

على أن الميزة الأساسية التي يتميز بها الوصف في أدب الرحلة هي مادته التي يشتغل عليها عند تفعيله، استعانة بقدرة الذات الكاتبة على الإلمام بتفاصيل المشاهد وجمالية تشكيله المتعلقة بالأحاسيس والمشاعر المسهمة في تحديد معالم الصور المستحضرة،

وقد لا تستثنى منها أمكنة خاصة ما وجدت لها حضورا إلا في عوالم الخيال أو فضاء الحلم الفسيح مثلما تضمنه هذا المقطع النصي: "هناك مدن يتمنى المرء أن يزورها ولكن ظروفها القاهرة تحول دون تحقيق أمنيتها، ومن هذه المدن ما يزورها خياله دائما وتتجه إليها أحلامه فهي لا تفارقه بل في قلبه أينما ذهب وحيثما ارتحل"³³.

وإجمالا للقول، فإن حضور المكان في منظومة النص الرحلي يستمد جماليته من طريقة توظيفه الفنية وإضفاء حركية على عناصره بنقلها إلى واقعة لغوية وإعادة تشكيلها فنيا، وبذلك يكون له مظهران مظهر مادي/ حسي مثلما هو في واقعه الخارجي، ومظهر لفظي/ لغوي ذو دلالات نصية يتحرك فيها أشخاص وترتسم خيالات

وتتضمن وجهات نظر فكرية؛ إذ يضيف هذا النقل على المكان طابعا فنيا لتأسيسه على فعل الكتابة وطرائق العنونة وإمكانية القراءة، ولهذا تأسس النص الرحلي عند عبد الله ركيبي على انسجام فني بين العنوان "في مدينة الضباب ومدن أخرى" وبين مرحلة الانتقال في عملية توصيف الأمكنة مع التركيز على أكثرها جاذبية ورمزية وحضورا. ومن أشكال التأثير بالأمكنة في رحلة عبد الله ركيبي استحضار بعضها ومقارنتها بما كانت عليه في زمن مضى تأثرا بما للمكان من رمزية خاصة، فيها ارتباط بحديث الوطن والتعلق بأرضه على الرغم من الطابع المميز للكتابة الرحلية المبني على المعاينة والمشاهدة والتوصيف.

ويبدو أن أهمية المكان أكثر ارتباطا ببعد فني هو جزء من تركيبة إبداعية متداخلة ومتجانسة يتجلى فيها حضور المكان بتضافر مكونين أساسيين هما التخيل والاستحضار؛ ليتواشج هذان العنصران فنيا مع أساليب الكتابة وطرائق التشكيل فالمكان عند استحضار تفاصيله في الكتابة الرحلية يعتمد بالأساس على ما بقي له من أثر في الذاكرة، وقد يمارس عليه نوع من الانتقائية فيذكر كاتب الرحلة أمكنة ويستغني عن ذكر أخرى وهذا بحسب أثره النفسي وقيمه الواقعية.

هوامش الدراسة:

- 1- المصطفى مويقن: بنية المتخيل، دار الحوار للنشر، اللاذقية، سوريا، 2005، ص101.
- 2- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص97.
- 3- سعيد يقطين: السرد العربي - مفاهيم وتحليلات - ط01، رؤية للنشر، القاهرة، مصر، 2006، ص196.
- 4- اعتدال عثمان: إضاءة النص، ط01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص45.
- * هو عبد الله خليفة ركيبي (1911-1928) زاول مرحلة الابتدائي بمسقط رأسه (بسكرة)، ثم أتم تعليمه المتوسط والثانوي في تونس، واصل دراسته العليا بجامعة القاهرة متحصلا فيها على شهادات الليسانس والمجستير والدكتوراه في الأدب العربي الحديث، اعتقلته السلطات الاستعمارية في معتقل أفلو بولاية الأغواط سنة 1956 ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في مدينة بسكرة، ولكنه فر منها ليلتحق بجمال الآوراس معقل الثورة التحريرية، وبعد الاستقلال اشتغل مدرسا بجامعة الجزائر "كلية الآداب" قسم اللغة العربية، وترقى في سلك التدريس حتى أصبح أستاذ كرسي للأدب العربي الحديث. أشرف على البحث العلمي بالقسم المذكور لمدة ثلاث سنوات وبقي عضوا في مجلس البحث العلمي حتى غادر الجامعة. ترأس نادي الفكر العربي الذي أنشأه مثقفون جزائريون بعد الاستقلال سنة 1965، أسهم في تأسيس اتحاد الكتاب الجزائريين.
- 5- عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، د/ ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2009، ص100-101.
- 6- محمد بوعزة: تحليل النص السرد، ط01، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2010، ص105.
- 7- عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص102.
- 8- حبيب مونسى: فلسفة المكان في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص02.
- 9- ينظر: محمد عبيد صالح السبهي: المكان في الشعر الأندلسي، ط01، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2007، ص105.
- 10- عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص52.

-
- 11- المصدر نفسه، ص121.
 - 12 - المصدر نفسه، ص41.
 - 13 - المصدر نفسه، ص110.
 - 14 - محمد بوعزة: تحليل النص السردي، ص107.
 - 15 - عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص47.
 - 16 - ينظر: غاستون باشلار: جماليات المكان، ط05، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص72.
 - 17 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
 - 18 - المصدر نفسه، ص65.
 - 19 - المصدر نفسه، ص152.
 - 20 - المصدر نفسه، ص69.
 - 21 - المصدر نفسه، ص152.
 - 22 - محمد ونان جاسم: المفارقة في القصص، ط01، رند للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 2010، ص18.
 - 23 - عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص21.
 - 24 - ينظر: محمد عبيد صالح السبهاني: المكان في الشعر الأندلسي، ص89.
 - 25 - عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص32.
 - 26 - المصدر نفسه، ص33.
 - 27 - المصدر نفسه، ص25.
 - 28 - المصدر نفسه، ص54.
 - 29 - المصدر نفسه، ص168.
 - 30 - جميل حمداوي: السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ع31، مج25، مارس 1997، ص109.
 - 31 - عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص111.
 - 32 - محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص110.
 - 33 - عبد الله ركيبي: في مدينة الضباب ومدن أخرى، ص221.